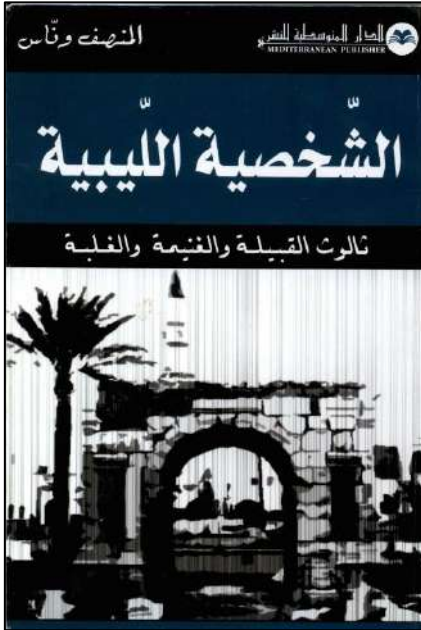




الشخصية الليبية:

ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة

-----000-----

الكاتب: المنصف وناس

الناشر: الدار المتوسطة للنشر تونس 2014 -

115 صفحة

قراءة نقدية في المنهج والنظرية

ضو خليفة الترهوني،

أستاذ علم الاجتماع مشارك

كلية الآداب - جامعة طرابلس ليبيا

تاريخ القبول: 2021/12/23

تاريخ المراجعة: 2021/10/28

تاريخ الإرسال: 2021/08/30

الملخص

هذه الدراسة هي قراءة عميقة في عمل المنصف وناس حول الشخصية الليبية: ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة، الذي يتناول الشخصية الليبية انطلاقاً من تحديد تصوري للشخصية القاعدية الليبية في شكل مجموعة تراكمات عديدة ومختلفة على المستويات التاريخية والاجتماعية والسياسية. لقد انطبع عمل الناس بكثير من التجني الذي يتجاف عنه أهل البحث العلمي نتيجةً لإسقاطه على مادة دراسته الكثير من المفاهيم الاجتماعية الغربية التي لا تتناسب معها، وهو إخفاق لا يروّبه إلا نحت نظرية عربية حول خصائص وسمات الشخصية العربية، بإجراء دراسات تنطلق من الواقع العربي وحده.

الكلمات المفتاحية: الشخصية الليبية - المنصف وناس - سوسيولوجيا

Abstract

This study is a deep reading in the book of Al-Monsef OUENNAS on the Libyan personality: the trinity of the tribe, the booty and the victory. The work deals with the Libyan personality from a conceptual designation of the basic Libyan personality in the form of a set of many historical, social and political levels. The work of OUENNAS is characterized by subjectivity defended in scientific research; this was the result of the use of many Western social concepts, which does not correspond to the subject of its study. A failure that can only be exceeded with the development of a purely Arab approach based on the characteristics and features of the Arabic personality, by conducting studies from Arab reality.

Keywords: Libyan personality - Al-Monsef OUENNAS - Sociology

Résumé

Cette étude est une lecture approfondie dans l'ouvrage d'Al-Monsef OUENNAS sur la personnalité libyenne : la trinité de la tribu, du butin et de la victoire. L'ouvrage traite la personnalité libyenne à partir d'une désignation conceptuelle de la personnalité libyenne basique sous forme d'un ensemble de nombreuses et différentes accumulations sur les plans historique, social et politique. Le travail de OUENNAS se caractérise de subjectivité défendue en recherche scientifique, cela était le résultat d'utilisation de nombreux concepts sociaux occidentaux qui ne correspondent pas au sujet de son étude. Un échec qui ne peut être dépassé qu'avec l'élaboration d'une approche purement arabe sur la base des caractéristiques et des traits de la personnalité arabe, en menant des études issues seulement de la réalité arabe.

Mots-clés : personnalité libyenne - Al-Monsef OUENNAS - Sociologie

المقدمة

تشكل دراسة الشخصية في الواقع العربي تحدياً سوسيولوجياً كبيراً أمام الباحثين العرب وبصورة خاصة الباحثين في علم الاجتماع. ومهما يكن من أمر، فإن دراسات علمية كثيرة اهتمت باستكشاف حقيقة وطبيعة ومعالم الشخصية العربية في أكثر من مكان في المجتمع العربي غير أن هذه الدراسات العربية في المجمل كانت ولا زالت

تنطلق على المستويين النظري والمنهجي من التراث النظري الغربي حول الشخصية ، فضلاً عن أن هذه الدراسات حرصت تماماً على محاكاة المناهج والأساليب المنهجية الغربية التي ارتبطت في الأساس بدراسة وبحث ديناميات الشخصية الغربية دون غيرها وفي واقع غربي يختلف تماماً عن الواقع العربي تاريخاً وحضارة وثقافة . ومن ثم، وفي ضوء هذه المحاكاة والتقليد للمناهج والأساليب النظرية والمنهجية الغربية من قبل الدراسات العربية جاءت نتائج وأحكام واستنتاجات الدراسات العربية حول الشخصية العربية بعيدة عن الواقع، ومشوهة المنطلقات، وفقيرة للدلالات والمعاني الأنثروبولوجية والسوسيولوجية السليمة والموضوعية. علاوة عن أنها تشكل صورة من الأعمال الانطباعية والذاتية والتأملية.

ومن بين الأعمال البحثية التي تنتهي لمثل هذه الدراسات العربية حول الشخصية القاعدية أو القومية عمل الباحث التونسي المنصف وناس حول الشخصية الليبية: دلالوث القبيلة والغنيمة والغلبة انطلاقاً من تحديد تصوري للشخصية القاعدية الليبية وفي شكل مجموعة تراكمات عديدة ، ومختلفة على المستويات التاريخية والاجتماعية والسياسية، وفي ظل مؤثرات عديدة ساهمت في نحت وهندسة الشخصية القاعدية الليبية تمثلت في الأساس في : الهجرات ، والاستعمار ، والغزوات التاريخية (الرومان، والوندال، والبيزنطيين، والأسبان والأتراك...). لقد أرتكز عمل الشخصية الليبية هذا في تكوين تصورات واستنتاجاته في ضوء مفهوم البداوة كبنية ذهنية وثقافة متحكمة في أنماط السلوك في الواقع الليبي.

وقد تشكلت خصائص وصفات هذه الشخصية القاعدية التي تعكس المخزون النفسي والذهني الجماعي في ظل بدونة مفروضة فرضاً بفعل السلطة السائدة أو النظام السياسي الحاكم وهي سلطة عملت على تغليب البدو على الحضر، وترسيخ مفاهيم وأحوال البدونة السياسية، وتكريس روح الغلبة لدى الناس، وتأكيد الحرص على الهيمنة وهزيمة الآخر. غير أن هذا العمل البحثي متمثلاً في موضوع الشخصية الليبية قد توصل إلى استنتاجات وأحكام نهائية وقطعية كشفت عن قائمة من الخصائص والصفات التي وسمت بها الشخصية القاعدية الليبية ومن بينها: السيطرة والاستفراد ورفض الاختلاف ومحاورة

الأخر. وحب التسلط على الآخرين، وعدم الميل إلى الجهد، وتدنى مستوى الحماس للإنتاج، والعمل والافتقار لتوظيف وتنمير التجارب والخبرات، فضلاً عن عدم تحمل التزامات القوانين وضوابط الحياة العصرية، وتغليب روح الغلبة والنهب، وترسيخ أحوال الهيمنة وهزيمة الآخر. والتشيع للقبيلة والعصبة القبلية، ومعارضة ومقاطعة التحديث والعصرنة.

وبين هذا وذاك، تظل الحاجة ماسة إلى قراءة ومراجعة عمل كهذا يدور حول موضوع معقد وصعب يدعى الشخصية القاعدية، طالما أن العمل نفسه موضوع المراجعة، وصلب اهتمام هذه الورقة البحثية قد استند أساساً على منطلقات نظرية قاصرة وخاطئة من جهة، وعلى أساليب وإجراءات منهجية مشوهة من جهة أخرى. لذلك واستناداً لكل ما سبق عرضه، فإن هذه الورقة البحثية سوف تناقش وتجب عن التساؤلات الرئيسية التالية:

- 1- كيف تعامل عمل الشخصية الليبية مع مفهوم الشخصية القاعدية كمنطلق رئيسي؟
- 2- ما المنطلقات النظرية التي وظفت في قراءة وفهم الشخصية القاعدية الليبية؟
- 3- كيف يفهم عمل الشخصية الليبية مفهوم الشخصية القاعدية في ضوء المنظور التاريخي والتغير الاجتماعي؟
- 4- ما الأساليب المنهجية التي استخدمت في فهم الشخصية القاعدية الليبية؟
- 5- ما خصائص الشخصية الليبية الكبرى التي وردت في عمل الشخصية الليبية؟
- 6- كيف ينظر عمل الشخصية الليبية للعلاقة بين القبيلة والتحديث المادي في ليبيا؟

القراءة النظرية :

أولاً: سؤال المنطلق : مفهوم الشخصية القاعدية:

يعترف المؤلف منذ الوهلة الأولى في التقديم العام بأن الشخصية القاعدية هي مبحث أو اهتمام بحثي ينطوي على حيرة عملية (ص5) ، فضلاً عن أنه موضوع تباين واختلاف على مستوى الدلالات وعلى مستوى الاستعمال ، ومن المؤكد أنه ثمة اختلافات

بين الباحثين حول تعريفه ، ومن المؤكد أيضاً وفقاً للمؤلف أنه يوجد من يشكك في جدواه العلمية والعملية (ص5) .

ويعترف المؤلف في موضع آخر بغموض وصعوبة وتعقيد المفهوم حينما يقول " ليس مبحثاً سهلاً في القراءة والفهم ، وإنما هو على النقيض من ذلك مرهق وصعب المراس علمياً " (ص13) وأن الصعوبة فيه تكمن أساساً في كيفية تطبيقه ميدانياً وإجرائياً . وي طرح المؤلف من جانب آخر ، مشكلة توظيف المفهوم كمفهوم غربي في بيئة مغايرة وهي البيئة العربية ، علاوة على أن الإنتاج العلمي حوله هو بالأساس - انجلوسكسوني ولا تكاد توجد أدبيات فرنسية حوله ! ... الأمر الذي يطرح مشكلة توطين المفهوم في بيئة غير غربية ، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بالمجتمع الليبي الذي يتمتع بثقل تاريخي وقبلي معين يتسم بالفردية والخصوصية (ص13) . وعلى الرغم من كل ذلك ، فالكتاب يهدف أساساً إلى تشجيع الحوار وإثارة الحيرة الفكرية بقصد مزيداً من الفهم (ص14) . وفي تقديري ، أن المؤلف وفقاً لما تم عرضه قد انحاز متعمداً لتوظيف مفهوم معقد وموضع جدل واختلاف بين الباحثين ، ناهيك عن حالة التشكيك في جدواه العلمية والعملية إلى المستوى الذي لا يتيح (قليلاً أو كثيراً) إمكانية توظيفه على المستوى النظري والمنهجي في بيئة اجتماعية مغايرة تماماً للبيئة التي ظهر فيها المفهوم . ويشكل هذا الوضع في المحصلة النهائية معالم - انطلاقة مفهومية غامضة - ما كان للمؤلف أن ينطلق منها نظرياً ومنهجياً ، الأمر الذي يشكل - بداية متعثرة وقاصرة - في فهم ديناميات المجتمع الليبي بشكل عام ، والشخصية القاعدية فيه بشكل خاص على الرغم من تصريح المؤلف بأهمية المفهوم باعتباره مدخلاً من المداخل العلمية الممكنة لفهم الواقع الليبي بما في ذلك الخصائص البارزة والمميزة للشخصية القاعدية (ص14) .

مهما يكن الأمر ، فإنه من المهم ، بل من الضرورة - منهجياً ونظرياً - ولكل عمل بحثي ، الإنطلاق من تحديدات وصياغات واضحة ودقيقة تستغرق معاني ودلالات المفهوم أو المفاهيم الرئيسية التي تعبر عن موضوع البحث أو الدراسة ، وباعتبار أن المفاهيم تمثل

الدعامات الرئيسية لكل بحث أو دراسة ، وما إذا كان المؤلف تبعاً لذلك يقصد بمفهومه الرئيسي الشخصية القاعدية ، أو الشخصية القومية ، أم البناء الأساسي للشخصية ، أم الطابع الاجتماعي للشخصية ، أو الشخصية المتوالية الخ . والغاية من هذه التحديدات والصياغات الدقيقة للمفهوم هو تحديد وتقييم البيانات ، أو المعطيات التي يعتمد عليها المؤلف ، فضلاً عن صدقية تفسيره لتلك البيانات والمعطيات ، على أنه من الضرورة أيضاً ، على المؤلف تحديد متغيراته الرئيسية التي استندت عليها مناقشاته وتفسيراته حول موضوع الشخصية الليبية .

ومن جانب آخر ، يظل المؤلف في حاجة إلى تحديدات دقيقة لنطاق استخدام وتوظيف مفهومه الرئيسي ، وهل يبسط نطاقه أو مجاله على كل فئات المجتمع الليبي ؟ أم يقتصر الأمر على بعض شرائح المجتمع دون غيرها . فضلاً عن التصريح الواضح عن النطاق الزمني لتطبيق مفهومه ! ومن المناسب القول ، وتوخياً للدقة والوضوح ، أنه من المهم على المؤلف التحدث عن الشخصية القومية الليبية في إطار عقد مقارنات لبياناته ومعطياته حولها ، ومعطيات أخرى عن مجتمعات أخرى ، فما الذي يدرينا أن ما يعتبره المؤلف خصائص مميزة لمجتمع معين لا تشترك فيها مجتمعات أخرى . غير أنه من المناسب القول أيضاً ، أن المؤلف تحدث عن شخصية قاعدية في المجلد مع إغفال وجود أنماط فرعية لهذه الشخصية في المجتمع العام كالشخصية الريفية والحضرية رغم - التداخل - بين هذه الأنماط ، فضلاً عن تفرداها بسمات نفسية وثقافية واجتماعية واقتصادية محددة ، ناهيك عن أن الشخصية الحضرية تتعرض دون غيرها لمؤثرات ومتغيرات خارجية مختلفة .

ومهما يكن من أمر ، تظل أهمية الانطلاق بحثاً عن تحديدات وصياغات دقيقة وواضحة للمفهوم الرئيسي الذي يدور حوله كتاب الشخصية الليبية متمثلاً في مفهوم الشخصية القاعدية أو القومية أمراً ضرورياً لا تستقيم التفسيرات والتحليلات بدون ، وفي هذا السياق ، كان من الضرورة على المؤلف التحاور أو مناقشة العديد من التعريفات أو التحديدات التي تصدت لمفهوم الشخصية العربية أو القومية أو القاعدية في بعض

أعمال الباحثين العرب ، وبصورة خاصة تلك الأعمال التي انطلقت من خصوصية الواقع العربي ، والشخصية القومية العربية . ومن بين هذه الأعمال البحثية عمل عالم الاجتماع العراقي علي الوردي الذي كشف عن أن تحديد الشخصية أو تعريفها بشكل جامع مانع هو من الصعوبة بمكان فهي كالكهرباء أو الأثير أو المغناطيس لا تُعرف إلا بآثارها (الوردي، 2001:12). ومن جانب آخر قدم عالم الاجتماع التونسي محمود الذواودي عملاً بحثياً استعرض فيه دلالات ومعاني الشخصية القاعدية في أنها " الشخصية الجماعية العامة لمجتمع وذات بعض السمات الخاصة ويشارك فيها أفراد المجتمع ، وهي محصلة لعوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية في المجتمع ومنه (الذواودي ، 2006) .

ثانياً : تحديد موضوع الكتاب في ضوء المنطلق النظري:

تثار مشكلة البحث، أو موضوع البحث - نظرياً ومنهجياً - في ضوء ، ومن خلال التفاعل الجدلي بين الفكر متمثلاً في النظرية ، والواقع الاجتماعي والثقافي . فالفكر أساساً بما ينطوي عليه من تصورات ومفاهيم ومقولات نظرية نابعة من الواقع المعين يظل يتفاعل مع هذا الواقع بصورة دائمة ، فضلاً عن أنه جزءاً لا يتجزأ من ذلك الواقع (زايد ، 2002: 98) . لذلك تشكل النظرية الاجتماعية " الانطلاقة الضرورية والحاسمة في إجراء أي بحث علمي . فلا علم بدون نظرية يستند عليها في البرهنة والرفض ، ولا صلة بين الواقع الاجتماعي المعقد ، والعلم إلا من خلال النظرية العلمية (الترهوني ، 2016:1). فضلاً عن أن التصورات النظرية المقترحة لتوجيه العمل البحثي المعين تنطوي على إسهامات هامة تساعد في تنقية وتحديد وصياغة المفاهيم الرئيسية التي ينطوي عليها موضوع البحث أو الدراسة إلى المستوى الذي تضافى فيه تلك التصورات النظرية دلالات ومعاني ومضامين دقيقة وواضحة على تلك المفاهيم الرئيسية، وبشكل يتيح إمكانية انتقاء تلك المعطيات والحقائق العلمية المناسبة التي تدور حول تلك المفاهيم تحديداً . وتساهم في هذا الصدد ، البحوث السابقة ذات الصلة بموضوع البحث في الوصول إلى شروح وتفسيرات علمية رصينة

لا يكتمل العمل البحثي بدونها ، علاوة على أن البحوث السابقة تظل – مسألة لا مفر منها – لأي باحث باعتبارها تعكس – فائدة نفيسة وقيمة في تدشين نقطة الإنطلاق الأساسية والجوهرية لأية دراسة علمية ، فضلاً عن أنها تمثل – الحجر الأساسي – للدراسات والبحوث اللاحقة بشأن تخطيط وتقييم دينامياتها وخطواتها النظرية والمنهجية (الترهوني ، 2017: 1) .

وما يمكن قوله في هذا الصدد، أن مؤلف الشخصية الليبية ، قد تناول موضوعه البحثي في غياب تصورات نظرية ذات خصوصية عربية تلقى الضوء بكفاية على مفهومه الرئيسي متمثلاً في مفهوم الشخصية القاعدية ، واعتمد كبديل عن ذلك بتصورات نظرية مستوردة لا تنتمي للواقع الليبي أو العربي بصفة أو علاقة ، فضلاً عن أن محاولات بحثية كثيرة حذرت من أن معظم التراث النظري حول الطابع القومي للشخصية العربية تشكل في صورة انطباعات عامة وافتراسات صيغت أو اعتمدت على أطروحات غربية مستوردة من جانب ، وغياب بحوث ميدانية رصينة تتيح الحصول على مادة صادقة ودقيقة عن الشخصية العربية من جانب آخر (زايد ، 2002: 98) .

وفي ضوء هذا الوضع ، وفي ظل هذه المحاذير النظرية التي اشرنا إليها جاء عمل الشخصية الليبية موضوع هذه الورقة – مفتقراً – لتحديد وصياغة دقيقة لموضوعه البحثي . ومن ثم ، افتقد العمل البحثي حول الشخصية الليبية للجوانب التالية :

- غياب أطار نظري واضح ومتناسك .
- غياب التركيز على المتغيرات البنائية التي تحمل تأثيراً في تحديد معالم الشخصية الليبية .
- غياب أعمال بحثية سابقة تنطوي على تفسيرات بنائية واسعة النطاق .
- الاعتماد على جهود بحثية ذات طابع تأملي وانطباعي تختفي فيها التفسيرات الأمبريقية .
- توظيف تعميماته عن الشخصية الليبية في فترات تاريخية مختلفة دون اكتراث لدور التأثيرات التي تحملها التغيرات التي يتعرض إليها المجتمع الليبي في كل مرحلة ، ودون اهتمام

أو مراعاة لخصوصية كل مرحلة ، حتى لا نشعر وكأن الشخصية الليبية اليوم هي الشخصية التي عاشت في العهد الروماني والفينيقي والتركي ...

- غياب كامل للتحديد الدقيق والواضح للمتغيرات الرئيسية التي تستند عليها المناقشات والتفسيرات النظرية .

- الافتقار لتصريح واضح يحدد بدقة كيفية تطبيق مفهوم الشخصية القاعدية من حيث : نطاقه أو مجاله على كل فئات المجتمع ، أم أن الأمر يقتصر على بعض الفئات دون غيرها .
- عدم الإثارة للمجال الزمني لتطبيق المفهوم الرئيسي متمثلاً في الشخصية القاعدية .

- غياب المواجهة الموضوعية مع قضية القيم الثقافية وتوجيهاتها ، وأثار ذلك على الشخصية في حالة التماسك والتناغم المجتمعي من جانب ، وفي حالة التناقض والاهتزاز من جانب آخر (عمار ، 1981: 98-99)

- غياب تصور واضح يعبر عن الموضوع البحثي في شكل عناصر أو أقسام .
- غياب تعريفات إجرائية حول الشخصية الليبية تعكس جملة من الأبعاد والمؤشرات تدور حول جملة من السمات والخصائص للشخصية تنعكس في مجموعة من المشاعر والسلوك في مواقف معينة .

- افتقار عملية تحديد الموضوع البحثي - الصياغة المبكرة - للخصائص أو السمات التي سوف يهتم بدراستها في الشخصية الليبية ، وما إذا كان المؤلف ينوي دراسة سمة معينة أو مجموعة محددة من السمات تتميز بها الشخصية الليبية عن غيرها من الشخصيات القومية (البيومي وآخرون ، 1992: 332) .

- ومن بين ما ينبغي على المؤلف عمله ، أو الانتباه إليه منهجياً تصنيف السمات والخصائص إلى سمات إيجابية أو سمات سلبية ثم تقسيم تلك السمات إلى مشاعر نفسية أو أفعال أو أنماط سلوك إلى المستوى الذي يتيح للمؤلف اتخاذ قرارات تكشف بوضوح عن ما سوف يلتزم به في دراسته لهذه السمات والخصائص ، وهو ما تحتاجه عملية صياغة وتحديد المشكلة البحثية أو الموضوع البحثي. ومن جانب آخر، أهمية أن يصرح المؤلف مبكراً عن مجاله المكاني والزمني لبحثه أو كتابه، ونوعية الشخصيات التي ينوي مقابلتها، وما إذا

كانت تقطن المدن أو القرى أو مناطق بدوية بعينها، فضلاً عن التصريح عن الفترة التاريخية التي سوف يدرس فيها الشخصية الليبية، ناهيك عن الإشارة إلى مصادر بياناته، وما إذا كانت وثائق أو تقارير أو سجلات متاحة، أو كتب أدبية، أو سجلات إحصائية، ومجلات وصحف، بالإضافة إلى الكتب التاريخية عن التاريخ الليبي مع مراعاة تأثير أيديولوجيات محددة على أفكار بعض المؤرخين وتحليلاتهم، مع مراعاة ظروف كل عصر، ونوع نظام الحكم والأيديولوجية السائدة في تلك الفترة.

وبين هذا وذاك، ينبغي على المؤلف إثارة بعض التساؤلات العلمية، أو تبني بعض الفروض القادرة على تفسير نشأة ووظيفة بعض الخصائص والسمات، وعلاقتها بسمات وخصائص أخرى، وما أثر بعض السمات في توجيه الفعل الاجتماعي؟ وما نوع الظروف والأحوال الاجتماعية والسياسية والفكرية التي أدت إلى بروز سمة دون غيرها في ضوء الأدلة التاريخية والوثائق والكتابات ذات الصلة بالمسألة التاريخية للواقع الليبي.

ثالثاً: الشخصية القاعدية بين المنظور التاريخي الاجتماعي والتغير الاجتماعي:

تبني المؤلف العوامل التاريخية والاجتماعية وحدها لتحليل المتغيرات التي تحمل تأثيرات قوية وعميقة في نحت وهندسة الشخصية القاعدية الليبية. واستند في ذلك على تأثير الفينيقيون والرومان والوندال والإغريق والبيزنطيون والعرب والمسلمون والهلاليون والإغلبة والعثمانيون والإنجليز والإيطاليون والقره مانيليون (ص7)، بعد أن طبعت جميعها الإنسان الليبي بطابع خاص، واكسبته صفات محددة تحكمت في تمثالاته للحياة وسلوكياته بما في ذلك علاقاته الاجتماعية (ص6). وما يمكن قوله في هذا الصدد أن المؤلف أغفل تماماً، أهمية المتغيرات الثقافية التي تحمل الدور الأكثر تأثيراً في تشكيل وصياغة مكونات الشخصية القاعدية (الذواوي، 2012: 160)، بعد أن صارت تأثيرات الحضارات المشار إليها أعلاه منعقدة تماماً بالمعنى الثقافي، وبصورة خاصة فيما يخص عاملي اللغة والدين بعد زوال لغة وتقاليد والمكونات الثقافية والحضارية لتلك الحضارات، ويظل تأثير عاملي اللغة والدين يرتبط أساساً بتأثيرات الحضارة الإسلامية وحدها ومتمثلاً

في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي في ليبيا بشكل خاص ، والمغرب العربي بشكل عام ، فالشخصية القاعدية الليبية كما هو حال الشخصية القاعدية التونسية انصهرت ولا زالت بالكامل في "بوتقة الحضارة العربية الإسلامية من لغة وعقيدة وثقافة وتاريخ (الذوايدي ، 2012: 160) .

ومن ثم ، فإن ربط المؤلف معالم البنية الاجتماعية والثقافية والذهنية للمجتمع الليبي بمؤثرات تاريخية لحضارات ترجع إلى آلاف السنين بعد أن صارت حضارات متجمدة ومُصمّته تشكّل قصوراً في الفهم والتحليل لظاهرة مهمة ومعقدة وهي الشخصية الليبية . علاوة على إنتفاء الضرورة والأهمية في إستحضار هذا التراكم الثقافي والحضاري في فهم واستيعاب خصائص الواقع الليبي الراهن على الرغم ، من تشديد المؤلف على استحضر هذا التراكم لذلك يبدو لنا ضروريا من الناحية النظرية والعلمية أن نستحضر هذا التراكم التاريخي والثقافي والحضاري وخاصة الأثنى كي يكون أداة معرفية مساعدة في فهم خصائص الواقع الراهن وطبيعة الصيرورة التاريخية التي تحكم في مسار المجتمع الليبي في العقود الستة الأخيرة " (ص 7-8) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشخصية العربية في المجمل ووفقاً للباحث العربي السيد ياسين " تتعايش فيها سمات بعضها يرتبط بالماضي وبعضها يرتبط بالحاضر (زايد ، 2002: 102) ، ومن ثم فإن فهم الشخصية القومية لا يكتمل إلا في ضوء - سياقها التاريخي - من خلال مجموعة الآثار والتراكمات التاريخية التي شكلت ظروفها بنائية معينة تطبع بدورها الشخصية بطابع معين (زايد ، 2002: 104) ، لذلك فإن توظيف السياق التاريخي في فهم طبيعة ومعالم الشخصية القومية أو القاعدية يتيح ما يلي:

- استيعاب البنية الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية من المنظور السوسيولوجي يتشكل في ضوء خصوصية تطور هذه البنية الاجتماعية .

- فهم وضعية البنية الاجتماعية وهي في حالة تطور بفعل عوامل داخلية وخارجية تاريخية واجتماعية يجعل هذا التطور يفتقد لأحوال الاستقرار ، وينسحب الأمر على الشخصية داخل البنية .
- تطور البنية الاجتماعية يتضمن إضافات متداخلة ومتشابكة يتفوق البعض منها على حساب إضافات أخرى في التأثير على الشخصية .
- وضع الشخصية في سياقات تاريخية محددة يتيح إمكانية فهمها واستيعابها .

واستناداً لكل ذلك ، فإن الشخصية الليبية ، والعربية إجمالاً هي في حالة مد وجزر وتغير يصعب معه الحديث عن خصائص ، أو سمات ثابتة حولها (وهو ما وقع فيه المؤلف) وفي كل المراحل التاريخية ، على الرغم من أن لكل مجتمع سمات أنثروبولوجية ونفسية واجتماعية وثقافية تشكل في مجموعها - قاسماً مشتركاً - بين أكثر المواطنين وفي وحدة متكاملة (الحيدري ، 2103) .

ومما ينبغي تأكيده في هذا السياق ، أن عمل الشخصية الليبية على أهميته والحاجة إليه أغفل بتعمد أو بدونه ، بوعي أو بغيره ، أهمية ودور التغيرات التاريخية التي شهدتها ولازال يشهدها الواقع الليبي في عمومها باعتبارها تشكل للباحث الاجتماعي -خيالاً سوسيولوجياً - يسهم فكراً في فهم الصورة التاريخية العامة والكلية للإنسان والمجتمع على السواء ، وما ينطوي عليه هذا الفهم من دلالات وظروف داخلية وخارجية تحمل تأثيرات عميقة على سلوك الأفراد في المجتمع ، فضلاً عن أهمية وقيمة هذا الفهم في تسليط الضوء حول العلاقة بين الشخصية والمجتمع العام . على أنه من المفيد التأكيد على قاعدة منهجية رائدة لعالم الاجتماع الأمريكي "رايت ميلز" حينما أكد على "أنه من العسير دراسة اتجاهات الأفراد ، أو أية ظاهرة اجتماعية إذا عزلت عن سياقها التاريخي ، وإذا درست منفصلة عن العنصر الذي تنتمي إليه " (محمد ، 1983: 310). ومن ثم ووفقاً لهذا السياق ، يظل الإطار التاريخي يلعب الدور الهام في تزويد الباحث ببصيرة سوسيولوجية ثاقبة يستوعب

بواسطتها ، ومن خلالها البنية الاجتماعية ككل ، وعناصر هذه البنية الرئيسية ، فضلاً عن الصلات بينها والمعاني والدلالات السوسولوجية التي تنطوي عليها المعالم البنائية لتلك البنية الاجتماعية وموقع تلك البنية على خط التاريخ البشري (محمد ، 1983: 310).

لذلك ، فإنه من الموضوعية أن يتصور الباحث العلمي الشخصية العربية لا في فراغ ، وإنما في سياقها التاريخي وفي ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والحضارية مع تعميق الفهم للشخصية القاعدية في ضوء تعاضل التغيرات والتبدلات التي تعصف بالواقع الاجتماعي وبنية الشخصية (عمار ، 1981: 99) . مع ضرورة الوضع في الحسبان أن البناءات الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية المعنية هي في حالة تغير واختلاف دائمة كما هو حال سمات الشخصية التي لا تخضع لثبات أو استقرار ، في الوقت الذي تستدمج فيه هذه الشخصية مكونات جديدة تؤدي إلى عدم الثبات . وهذا الوضع المتغير للشخصية يفرض ضرورة التعامل الموضوعي مع الشخصية في ضوء التبدلات والتحولات التي تصيب كل مرحلة تاريخية وأخرى ، فضلاً عن أن الشخصية القاعدية خلال تغيرها بفعل تلك التبدلات والتحولات ستكشف عن سمات متناقضة ومختلفة قديمة وجديدة ، ناهيك عن أن البنية الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية تتعرض هي الأخرى - دائماً - لحالة مستمرة من التشكل والتكوين وإعادة التشكيل والتكوين بفعل تحولات عديدة (زايد ، 2002 : 107) . وتتيح هذه التحولات والتبدلات - تباينات وتناقضات - بنيوية تكشف عن بروز اختلافات وتباينات تطال الشخصية (ريفية / حضرية) .

خلاصة الأمر ، فإن الشخصية القاعدية أو القومية ليست - بنية صامتة - تعيش خارج التاريخ الإنساني (ياسين ، 1993 : 5) . بل أن الشخصية هي إفراز طبيعي لظروف اجتماعية وثقافية وحضارية تشكلت في سياقات تاريخية كثيرة ، في صورة علاقة جدلية مع البنية الاجتماعية وعناصر الثقافة السائدة . وهذا الفهم الموضوعي لا يكتمل نظرياً إلا في ضوء دراسة البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية ، وفي سياقاتها التاريخية الأمر الذي يتيح الكشف عن أفضل العوامل التي أثرت وتوثر في بنية

الشخصية وثوابتها (الحيدري ، 2013: 7 - 11) . على أنه ووفقاً لعالم الاجتماع العراقي إبراهيم الحيدري من الأهمية لدراسة الشخصية وفهم حاضرها ، واستشراف مستقبلها فلا بد من فهم الماضي وتتبع مسيرته وما حدث فيه من قطيعات حضارية ، وتحولات بنيوية ، وتغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وذلك أن الظواهر الاجتماعية هي امتداداً تاريخياً مثلما لها امتدادات اجتماعية واقتصادية وانثروبولوجية ونفسية . وان فهم خصائص الشخصية كما هو حال الظواهر الاجتماعية كبنية تبلورت وتشكلت عبر الزمن وفقاً لظروف اجتماعية معينة ليست معزولة عن مجمل حركة المجتمع والثقافة التي أفرزتها سيرورة العلاقات الاجتماعية التاريخية والراهنة والتأثيرات المتبادلة بينها ومحاولة تلمس السمات الثابتة والمتغيرة في الشخصية ... (الحيدري، 2013: 27) .

ومن بين ما وقع فيه المؤلف من قصور أن عمله (الشخصية الليبية) موضوع هذه الورقة قد افتقد – تماماً- لتوظيف كتابات عربية كثيرة وعديدة تخصصت في الحديث عن الشخصية العربية في أكثر من مكان في الوطن العربي ، ولو حاول المؤلف استثمار البعض منها لاستطاع صياغة أطاراً نظرياً متماسكاً وخصباً وأكثر اثراءً ومنفعة ، والغريب أن المؤلف غاب عنه الإطلاع على كتابات عربية رائدة تدور حول الشخصية القاعدية أو القومية ، ومن بين هذه الأعمال أو الكتابات : السيد ياسين حول الشخصية العربية ، والبشير بن سلامة حول مقومات الشخصية التونسية ، وجمال حمدان حول شخصية مصر وعبقورية المكان ، محمد عزت حجازي حول الشخصية العربية : وحدة أم تنوع ، جابر عبد الحميد حول الشخصية المصرية والشخصية العراقية ، وعبد العزيز الرفاعي حول الطابع القومي للشخصية العراقية ، ومحمود النوادي في كتابه : الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث ، والشخصية التونسية " المستنفرة " واحمد زايد حول المصري المعاصر : مقارنة لبعض ابعاد الشخصية القومية المصرية ، وعبد الوهاب المسيري حول الشخصية الإسرائيلية ...

القراءة المنهجية :

كشف المؤلف عن توظيفه لأساليب وإجراءات منهجية بطريقة غير سليمة في بحث موضوع يتسم بالتعقيد والصعوبة متمثلاً في الشخصية الليبية (ص 13-14). فضلاً عن أن نجاح أية محاولة بحثية تقتضي - أساساً - الاعتماد على منهج علمي مناسب ينطوي على إجراءات وأدوات وأساليب وقواعد تتناسب مع موضوع البحث. ومن بين الإجراءات المنهجية التي استخدمت في دراسة موضوع الشخصية القاعدية الليبية الإجراءات التالية:

1- الملاحظة الأنثروبولوجية: اعتمد المؤلف على الملاحظة كأسلوب لجمع البيانات في رصد ديناميكية المجتمع الليبي وسلوكيات الفاعلين فيه حيث يقول المؤلف "اعتمدنا في هذه المحاولة البحثية على الملاحظة الأنثروبولوجية التي سمحت لنا على امتداد خمس وعشرين سنة أن نتأمل ديناميكية المجتمع، ونلاحظ سوكنيات مختلف الفاعلين الاجتماعيين داخله" (ص 16)، بيد أن المؤلف استخدم هذه الأداة دون أن يُلقي بالآ إلى أهمية ضبط وتخطيط وتقنين هذه الأداة قبل استخدامها في الواقع الميداني بهدف الوصول إلى بيانات ومعطيات وحقائق ينوي الوصول إليها. وفي هذا السياق يقول الباحثان: محمد الجوهري، وعبدالله الخريجي "فلأن عالم الاجتماع يجب أن ينظم بياناته، ويحللها في ضوء النظريات والمفاهيم السوسيولوجية.... ولهذا السبب ولغيره، فإن عالم الاجتماع يضطر إلى التفكير في الأساليب المنهجية المنظمة لأجراء ملاحظاته وتسجيل ما يحدث كما يقع بالفعل ... ويعد هذا التخطيط جزءاً من الأسلوب الفني في الملاحظة" (الجوهري، الخريجي، 1980: 126). ويضيف الباحثان "إن ملاحظة وتسجيل مشهد معين ملاحظة دقيقة وتحليل ما يرتبط به من دلالة تحليلاً واعياً يحتاج إلى تخطيط واعٍ" (المرجع السابق، 126) وما يمكن قوله في هذا الصدد، أن المؤلف باستخدامه لهذه الأداة لجمع بياناته لم يكشف عن خطواته المنهجية المرتبطة باستخدامها (وحدة اهتمامه إن كانت صفات أو خصائص أو أدوار اجتماعية أو أنماط سلوكية...) (التير، 2015: 118).

علاوة على عدم تصريح المؤلف عن أبعاد الفعل الاجتماعي الذي ستدور حوله الملاحظة، ونوع العلاقة كموضوع للملاحظة، إضافة إلى شكل اندماجه في الموقف المراد

ملاحظاته (مشارك تام أو كامل ، أم مشارك ملاحظ ، أم ملاحظ مشارك ، أم ملاحظ كامل). فضلاً عن تصنيف الملاحظة ما إذا كانت بسيطة أم مقننه ، مع تحديد الأسلوب أو الوسيلة المستخدمة في تسجيل الملاحظات الانثروبولوجية حول الوقائع والأفعال ، وكذلك أساليب تنظيم المادة العلمية . ومن بين ما يجب عمله قبل تنفيذ عمليات الملاحظة (وهو ما لم يقم به المؤلف) التصريح عن " الثقة " الذين سيعرض عليهم بياناتهم لمراجعتها وشرح دلالات ومعاني ومقاصد العناصر الغامضة فيها . يقول الباحث مصطفى التير في هذا السياق " كثيراً ما يعتمد الأنثروبولوجيون الذين يدرسون جماعات ... غريبة عنهم إلى اختيار عدد من أفراد الجماعة أو المجتمع الذين يتوسمون فيهم المعرفة والإلمام بجوانب الظاهرة التي تحت الدراسة ويراجع هؤلاء من حين إلى آخر ليستفسروا منهم عن مدى دقة وصدق ملاحظاتهم وعن المعاني الثقافية أو الاجتماعية للوقائع التي تم تسجيلها " (التير، 2015: 119).

ومن جانب آخر ، كان من الضروري على المؤلف أن يلتزم مستوى عال من تحسين أساليب الصدق والثقة من خلال قيامه كباحث بملاحظات انثروبولوجية على فترات متعددة ومتعاقبة ، أو بقيام عدد من الملاحظين بتسجيل ملاحظاتهم بشكل مستقل عن عمل باقي الملاحظين (بدر ، 1986 : 355) . ومن الغرابة أن المؤلف صرح بوضوح عن صعوبة إجراء بحثه جراء المراقبة لاعتبارات سياسية وأمنية في مجتمعات ذات تركيبة خاصة يتعذر فيها الوصول إلى معلومات بواسطة الاستمارة ، وقد أضطره هذا الوضع إلى الاستعاضة عن ذلك بأسلوب الملاحظة الانثروبولوجية (ص17) وهو بهذه الاستعاضة أو باستخدام وتوظيف هذا البديل سيواجه نفس العوائق السياسية والأمنية التي أشار إليها . وقد كان بإمكان المؤلف توظيف بدائل منهجية وأساليب أخرى ، وبأسلوب أكثر انضباطاً ودقة وموضوعية يتيح له جمع ومراكمة مادة علمية يرغب في جمعها . لقد استعاضت الكثير من الدراسات العلمية عن الملاحظة بالمشاركة على أهميتها بأدوات ووسائل أخرى أبان الحروب ، أو خلال دراسة جماعات مغلقة ، أو عصابات إجرامية خطيرة ، أو تتبع وبحث موضوعات أو قضايا تصطدم بعوائق أمنية أو مخبرانية .

ومن بين الأساليب البديلة للملاحظة بالمشاركة عمل عملي شهير ورائد أملتته الحاجة العملية والمصالح السياسية لأمريكا أثناء الحرب مع اليابان في الحرب الكونية الثانية ، وهدف هذا العمل العلمي أساسا إلى سيطرة أمريكا في الحرب فضلا عن، الوصول إلى سلم دائم في وقت يستحيل فيه تماما توظيف الملاحظة بالمشاركة ، فعوضاً عن ذلك كلفت أجهزة المخابرات الأمريكية بعض الباحثين في علم النفس والانثروبولوجيا بقيادة الانثروبولوجية الشهيرة " روث بندكت" رئيس قسم التحليل الأساسي بمكتب المخابرات الأمريكية لأعالي البحار.

انطلقت هذه الدراسة من هدف يكمن في ضرورة أن يفهم الأمريكيون اليابانيون لانتصار في الحرب ، وصياغة السلم الدائم من خلال اتوصل إلى تحديد خصائص الشخصية القومية لليابانيين بواسطة لاستحالة الملاحظة المباشرة في مثل هذه الظروف In Absentia دراسة الشعب الياباني عن بعد الحربية مما جعل فريق البحث يجرى استبارات (مقابلات) مع مئات اليابانيين الذين يعيشون خارج اليابان كالمهاجرين وأسرى الحرب ، وطبقت عليهم اختبارات نفسية ، وكتابة سير ذاتية عن تواريخ حياتهم ومثلهم الأمريكيون الذين سبق وأن عاشوا في اليابان (ياسين ، 1993: 55) .

وفي ضوء هذه البدائل المنهجية ، واستنادا للمثال السابق، كان من الممكن على مؤلف هذا الكتاب تلافى هذا القصور المنهجي (توظيف الملاحظة بالمشاركة) بواسطة مقابلة الليبيين الذين نزحوا بسبب الحرب إلى تونس في موجات كبيرة بحيث يتاح له كباحث إمكانية استخدام أسلوب الملاحظة الانثروبولوجية بكل سهولة ويسر وبدون تكاليف، وبعبداً عن أية محاذير أمنية أو سياسية أو مخبراتية.

لذلك ، فإن المؤلف أفتقد باستخدامه الملاحظة عن بعد معتمداً على الذاكرة وحدها ، والاتصالات الهاتفية أحيانا مع بعض الأصدقاء رصد المعاني التي يضيفها الأفراد على سلوكهم، وأساليب حياتهم ، وكيف يستشعرون وجود ثقافة تربطهم في ضوء بعض

الفروض السوسيولوجية ، أو التصورات النظرية التي تدور حول طبيعة التفاعل الاجتماعي (الجوهري ، الخريجي ، 1980: 184-185).

2-المقابلات : صرح المؤلف في عمله (الشخصية الليبية) أنه اعتمد على المقابلات في جمع بياناته بالإضافة إلى الملاحظة ، إلا أن المؤلف لم يوضح في استعراضه للأساليب المنهجية التي وظفها في بحثه مع من أجريت هذه المقابلات ؟ إلا في نطاق ضيق داخل الكتاب . يقول المؤلف " كما اعتمدنا ... على المقابلات التي يظهر بعضها بشكل مباشر في حين يتخفى بعضها الآخر في صلب النص " (ص 17) . وما يمكن قوله في هذا السياق أن المؤلف لم يذكر ولو تلميحاً ، أين أجريت مقابلاته هذه ؟ وكيف أجريت ؟ ولماذا اختيرت كأداة جمع بيانات ؟ وما نوعها ؟ وهل هي من النوع المقنن أو غير المقنن ؟ فضلاً عن كيفية تسجيلها ! وإجراءات إختبار وقياس صدقها وثباتها ؟ في وقت صرح فيه المؤلف عن صعوبات عديدة ارتبطت بتنفيذها كأداة جمع بيانات في الواقع الميداني حيث يقول " بعض المستجوبين أصروا تماماً على ذكر أسمائهم مختصرة لاعتبارات سياسية وشخصية في مثل هذه المرحلة الصعبة " (ص 17) ، علماً بأنه من الأهمية بمكان في هذا السياق على المؤلف أن يصرح منذ البداية عن مستوى ثقته في صدقية وتعاون مبحوثيه لأن نجاح المقابلة وفقاً للباحث أحمد بدر يعتمد على رغبة المستجوب في الحديث ، وقدرته على التعبير بدقة عما يريد تقريره ... وأن معظم المستجوبين يحاولون تلوين أو تشويه الحقائق بما يرضيهم (بدر ، 1986: 35-354) . على أنه من الضرورة أن تجرى المقابلات ، وتسجل وقائعها بوعي في ضوء المفاهيم والنظريات الشائعة في العلم خاصة إذا ارتبط الأمر بدراسة ظواهر ، أو موضوعات ذات بعد تاريخي نلتمس من خلالها وبواسطتها كشف طبيعة وحقيقة الذكريات المتعلقة بالحوادث الماضية ، أو ما يعرف بالبيانات الاسترجاعية الممتدة عبر الزمن .

3-أسلوب تحليل المضمون : أكد المؤلف من أجل مزيداً من التدقيق اعتماد منهجية هذه الدراسة على تقنية تحليل المضمون لعينة بسيطة من الشعر الشعبي الليبي (ص 18) . ويضيف المؤلف ليؤكد على أن " الشعر الشعبي أقرب المتون الإبداعية إلى الذهنية الليبية

، ومدخلا مهماً لفهم تركيبة التاريخ الاجتماعي والقبلي في ليبيا (ص18) . ولاشك أن تحليل المضمون أو المحتوى للمادة الثقافية يشكل في الأساس طموحاً منهجياً يكشف بكفاءة وكفاية عن معاني ودلالات ومقاصد الفعل الاجتماعي بصفة خاصة ، والواقع الاجتماعي بصفة عامة ، فضلاً عن أن استخدام هذه التقنية يتيح الإجابة عن أسئلة مثل : من يقول ماذا ؟ وإلى من يقول ؟ وكيف يقول ؟ وما هو الأثر ؟ (بدر ، 1986:359) ، علاوة على ، أن هذه التقنية تمثل الطريق السليم والأمثل لملاحظة سلوك الأفراد بطريق غير مباشر بواسطة تحليل الأشياء ، أو الرموز اللفظية التي يكتبها أولئك الأفراد (الجوهري ، الخريجي ، 1980:287) .

وما ينبغي قوله في هذا الصدد ، أن توظيف المؤلف بهدف المزيد من التدقيق حسب قوله لتقنية تحليل المضمون اعتماداً على عينة بسيطة من الشعر الشعبي الليبي من أجل فهم حقيقة وطبيعة الشخصية الليبية يشكل بكل وضوح - قصوراً وفشلاً - في توظيف هذه التقنية الثمينة والفاعلة ، وبصورة خاصة حينما يرتبط الأمر بتحليل البيانات الكيفية التي تدور حول معاني ودلالات ومقاصد الفعل الاجتماعي أكثر من أى شئ آخر ، فضلاً عن أن غياب الاستخدام الأمثل من قبل المؤلف لهذه التقنية - تحليل المضمون - يتيح تماماً - الوصول إلى استنتاجات وإحكام أقل ما يقال حولها أنها استنتاجات وإحكام مشوهة وموضع شك وريبة ، علاوة على أن المؤلف ووفقاً لذلك الاستخدام المشوه قد غاب عنه أن معتقدات واتجاهات وقيم وأنماط سلوك الجماعة تتكشف ، أو تكشف عن نفسها في المجالات والصحف والأدب والإعلانات والإعمال الدرامية والفن والرموز غير اللفظية التي من خلالها تنكشف أيضاً السمات الثقافية والاجتماعية لأنماط الحياة في المجتمع المعين .

فضلاً عن أن ، البيانات والحقائق والمعطيات التي تجمع بواسطة هذه المواد الثقافية والاجتماعية والأنثروبولوجية تتيح للأعمال البحثية المتخصصة عقد مقارنات هامة بين اتجاهات ومعتقدات وقيم الجماعات المختلفة التي يفصل بينها الزمان أو المكان

أو في المجتمع الواحد ، أو المجتمعات المختلفة . فضلاً عن ، أن التنقيب عن المنتجات الرمزية للإنسان من خلال الوثائق والسجلات الماضية والسير الذاتية والمذكرات الشخصية يتحقق بواسطة تقنية تحليل المضمون أو المحتوى دون غيرها من تقنيات (الجوهري ، الخريجي، 1980: 287-292) ، على أنه من الأهمية بمكان القول ، أن الكشف عن سمات وخصائص الشخصية القاعدية في ضوء ما تحويه ، أو تنطوي عليه الأعمال التاريخية والتربوية والثقافية والسياسية والفكرية من دلالات ومقاصد ومعاني تحتاج بالإضافة إلى ذلك إلى التنقيب الموضوعي في – الأعمال الأدبية – باعتبارها تستطيع تقديم أكثر الأوصاف دقة لخصائص وسمات الشخصية المعينة وبشكل أكثر قبولاً للاستيعاب ، فضلاً عن ، استنباط سمات وملامح إنسانية عامة ، ناهيك عن أهمية ذلك في التعرف على جوانب الشخصية ، أو صياغة نظرية حولها (عبد الرحيم ، 1990: 10).

خصائص الشخصية الليبية الكبرى : إنطلق المؤلف – أساساً – قبل أن يتحدث عن سمات وخصائص الشخصية القاعدية الليبية من مبدأ عام ، أو فكرة رئيسية قادت كل مراحل بحثه تمثلت في مفاهيم البدو والبدواء والذهنية البدوية ، وقد تلوّن عمله البحثي هذا منذ اللحظة الأولى بدلالات ومعاني كل هذه المفاهيم الرئيسية .

يقول المؤلف في هذا الصدد " أن البدو هم أكثر قابلية للثورة وأكثر ثورية قياساً بالحضر (ص27) . وكأن المؤلف يتحدث عن انقلاب 1969م في ليبيا ، بعد أن ربط هذا الحدث بالعقلية البدوية ، فضلاً عن تصويره كغزوة هلالية ثانية على مستوى النتائج المجتمعية والثقافية (ص27) . فضلاً عن أن المؤلف أعاد إنتاج بعض التهم التي لا تستقيم مع الموضوعية العلمية ، تلك التهم التي ألصقت بأهل الحضر في ليبيا متمثلة في برودهم الثوري وولائهم لايطاليا ودعمها عسكرياً (ص28) . علاوة على رسمه لصورة بائسة ورجعية لأهل الحضر الليبي خلال انقلاب 1969م وما قبله ، وفي تقديري أن المؤلف قد وقع تماماً في تقديم أحكام ذاتية مستعجلة وغير واقعية بعد أن أستهل بها عمله البحثي هذا – موضوع

هذه الورقة - علاوة على أن المؤلف كباحث في علم الاجتماع اقترح ميدانا معرفياً لايحيده، ولا يجيد الحديث فيه ، ومناقشة قضاياها واحداثه وهو التاريخ .

ويؤكد المؤلف على سيطرة أشخاص من أصول بدوية على مختلف مفاصل الدولة الليبية (ص28) دون أن يحدد بدقة الفترة الزمنية التي سيطر فيها هؤلاء الذين ينتمون لأصول بدوية ، ومن هم هؤلاء تحديداً ؟ أولئك الذين تعاملوا مع الإدارة على أنها غنيمة مع الإرتجال في المواقف والأداء متحججاً بأن الشخصية القاعدية البدوية هي مبالغة إلى الإرتجال (ص28) . وبقراءة هذا المدخل للمؤلف يتبين أنه يتحدث عن الشخصية الليبية في ضوء سلوكيات الصفوة الحاكمة لانقلاب 1969م. تلك الصفوة التي تحمل خلفية بدوية فكراً وسلوكاً وفقاً للمؤلف .

ينتقل المؤلف في موضع آخر من كتابه ليناقش مبدأ الثورة الإدارية الذي ورد ضمن مبادئ الثورة الثقافية الخمسة في خطاب زواره 1973م حيث تم تأويله على أنه يعني البدونة والغنيمة لتملك الغلبة الضرورية (ص29) . وعلى الرغم من الاتفاق مع الفكرة إلى حد ما ، إلا أن ما حصل في زوارة في الغرب الليبي 1973م هو انقلاب فردي قام به معمر القذافي للإنفراد بالحكم ، وإستبعاد مجلس قيادة الثورة من الساحة السياسية ، والتأثير السياسي بعد خلافات سياسية حادة بين الطرفين حول تسليم السلطة إلى الشعب ، أو إلى سلطة مدنية دعى إليها المجلس منذ التغيير في 1969م .

وقد تزامن مع هذا الحدث ظهور تجربة المؤتمرات واللجان الشعبية التي دعى إليها معمر القذافي بعد إن إنفرد بالسلطة . وهي تجربة غريبة استهدفت نشر الفوضى على كل المستويات ، وخلط الأوراق ، وتغييب النظام والإدارة والمؤسسات بالمعنى العصري الحديث إلى المستوى الذي تطابق فيه الإرتجال والغنيمة مع السلطة والغلبة وفقاً للمؤلف (ص30) . وقد تشكلت في ضوء ذلك معالم فوضى انتشرت في الواقع الليبي بفعل النظام السياسي لم يعرفها مجتمع من المجتمعات خلال جميع حقب التاريخ (التير ، 2014: 119) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك ليؤكد على أن " الغلبة تداوي الجروح ، وتسمح بالذهاب إلى أقصى مدى من الثمار وتصفية الحساب ... مع ما تتميز به الشخصية القبلية من تمركز حول الذات ونرجسية " (ص30-31) ، وفي تقديري أن المؤلف لا زال يتحدث عن سمات وسلوكيات النظام السياسي بعد 1969م ، وكأن المؤلف يخلط بين أشياء كثيرة وكأنها شيئاً واحداً (النظام السياسي ، الشخصية القبلية ، الغلبة ، الثأر) ، ويستنبط المؤلف في ضوء هذا الخلط سمات وخصائص يسم بها الشخصية الليبية في المجمل دون مراعاة لأنماطها (حضرية ، ريفية ، بدوية) .

تحدث المؤلف فيما بعد عن مفهوم " البدونة المفروضة " أو القسرية التي أفضت إلى نتائج مجتمعية يتوجب فهمها وفهم أبعادها ونتائجها غير الإيجابية (ص32) . ومن بين هذه النتائج وفقاً للمؤلف تنصل النظام من مسؤولية تحديث المجتمع الليبي – اقتصادياً واجتماعياً ، ومع أن المؤلف قد أصاب كبداية الحقيقة في التعبير عن حقيقة أهداف النظام ، وغاياته الغريبة والمأزومة ضد التنمية والتحديث ، إلا أن ربط المؤلف لما يحصل بفعل النظام السياسي بالشخصية القاعدية الليبية كمسبب لهذا الوضع يعد أمراً غريباً ، ويشكل معالم تحليل قاصر ومتجنى يطال الشخصية الليبية ، ومما لاشك فيه أن النظام السياسي متمثلاً في نظام القذافي قد وفر مظلة مناسبة للمحافظة على الحالة البدوية ... والتنصل من مسؤولية تحديث المجتمع ، فضلاً عن أن الولاءات القبلية في ليبيا قد ساهمت في عرقلة وتخريب بعض برامج تحديث المجتمع (العربي، 2015:7، التير، 2014:114) . وفي موضع آخر من الكتاب طرح المؤلف حالة تغليب البدو على الحضر والريف على المدينة ، وجعل المجتمع يعيش على إيقاع الصحراء والتغني بالخيمة بحجة الوفاء للقيم الأصيلة " قيم الأجداد " (ص33) . وما يمكن قوله في هذا السياق ، أن ماجاء به المؤلف يوافق الواقع إلى حد بعيد ، وهو واقع يعكس سلوكيات نظام دكتاتوري يعتمد على سياسة فرق تسد ، والإقصاء والتهميش والاستبعاد والاحتواء والتوظيف للأفراد والجماعات بعيداً عن الوفاء للقيم الأصيلة كما نوه المؤلف على ذلك . وتأتي القبيلة كواحدة من المؤسسات الغير رسمية التي استعملها النظام السياسي لأغراض كثيرة مرة بالتهميش ، وتارة بالاستبعاد أو

التوظيف . ينتقل المؤلف في موضع آخر من كتابه ليضرب مثلاً يدل به عن تكثيف وشدة حرص الشخصية القاعدية الليبية على تأكيد المرجعية البدوية ، والتمسك بالبداوة بعد أن اعتبرها هوية وانتماء ونمط حياة (ص34) . وقد أستعرض المؤلف في هذا الصدد بيتاً من الشعر العامي يردده الموالون للنظام السياسي السابق : "ابوادي لباسين جرود ايهبوا اليابصار البارود" . وعلى الرغم من أن المؤلف قد ربط مضمون بيت الشعر بالحرص على التلازم بين الهوية البدوية من جهة ، وامتلاك البارود من جهة أخرى (ص35) ، غير أن ما يمكن قوله في هذا السياق أن الأمر في مجمله لا يعدو أن يشكل تقريباً وتزلفاً لبعض الموالين للنظام السابق بهدف الحصول على منافع ومصالح شخصية والتمتع السهل بموارد الدولة .

وفي قراءة أخرى للمؤلف تناول فيها ما يعرف بالبدونة السياسية بواسطة النظام السياسي السابق ، والتي تقوم على تدمير الدولة ، والدعوة إلى التدمير بحجة الوصول إلى الديمقراطية المباشرة التي ترفض تماماً التمثيل باعتباره تدجيلاً (ص37) . علاوة على تهديم المؤسسات وطمس الوثائق . وعلى الرغم من حقيقة ما تناوله المؤلف في هذا الصدد ، إلا أن ربط الأمر أو المسؤولية بسلوكيات الشخصية القاعدية الليبية يشكل تجنياً على الشخصية نفسها لأن الشخصية الليبية ليست نمطاً واحداً ، فضلاً عن أنها ، لا تعكس سلوكيات ثابتة يقوم بها كل أفراد المجتمع ، بل أن سلوكيات الهدم هذه قد انغمس فيها النظام السياسي وحده منهجاً وتخطيطاً وتعهداً ، غير أن الأمر في مجمله هو لعبة ميكافيلية يديرها ويجيدها النظام من أجل الاستمرار في السلطة والسيطرة على الأوضاع .

ومن بين ماتعرض له المؤلف موضوع " البدونة السياسية " حيث يقول " تم العمل على استمالة قادة القبائل والشيخ والأشخاص الذين من شأنهم التأثير في قبائلهم وعشائريهم ، كما تمت الاستعانة بعدد من الضباط الكبار المتقاعدين الذين يتمتعون بسطوة رمزية وفعالية على قبائلهم لمنع تكوّن المعارضات " (ص39) . والأمر هذا لا يعدو أن يكون تكثيفاً واسلوباً مارسه السلطة وقت الحاجة : مرة بالتوظيف ، ومرة بالاستبعاد ،

ومرات بالتمهيش ولدواعي أمنية خالصة ، ويهدف المحافظة على استقرار الأوضاع ، واستمرار النظام في الحكم .

إن الحديث عن البدونة السياسية ، ومسائل استمالة شيوخ وقادة القبائل وكبار الضباط المتقاعدين هو إنعكاساً لحالة صمود وقهر واستبداد النظام السياسي ، ونجاح آلياته في استقطاب هؤلاء بشكل استطاع فيه النظام السياسي تعطيل ظهور المعارضات داخل القبيلة الليبية رغم البطش والتنكيل الذي انزله النظام السياسي بالنخب المعارضة داخل القبائل ، علاوة على استقطاب النظام لبعض نخب القبيلة المتعلمة وإغرائها بمراكز النفوذ وإغداق النعم التي لا تخضع للمحاسبة في علاقة بين حاكم ومحكومين أقل ما يقال حولها أنه حكم الساحر في الشعب المسحور (بعلبيكي 2014: 144) .

إن وضعاً كهذا ، وعلاقة كهذه بين حاكم وقبيلة لا يتيح مطلقاً تمكين القبيلة في ليبيا أن تخطى بمرتبة الشريك السياسي على الرغم من مشاركتها في الرقابة الإدارية والأمنية كما تمت الإشارة إلى ذلك منذ حين .

البداءة بنية ذهنية وثقافة متحكمة في السلوك:

ينطلق المؤلف من مفهوم البداءة باعتبارها ثقافة في حديثه عن خصائص الشخصية القاعدية الليبية حيث يقول " فمن الواضح أن البداءة باعتبارها ثقافة وتمثلاً لا تزال مؤثرة في الشخصية القاعدية ، ومتحكمة في جزء من السلوكيات و العلاقات الاجتماعية " (ص42) . ومع أننا نتفق تماماً مع هذا الطرح النظري ، إلا أن الحديث عن موضوع غاية في الأهمية متمثلاً في الشخصية الليبية يظل مبتوراً أو مشوهاً من خلال هذا الطرح ، فالأمر في مجمله ينصب حول شخصية قومية منها البدوي ، ومنها الحضري ، ومنها الريفي ، الأمر الذي يجعل تأثيرات البداءة كثقافة محدودة وربما غائباً عن بعض هذه الأنماط من الشخصية رغم التداخل بين هذه الأنماط في أكثر من مناسبة، ناهيك عن دور التغيرات الاجتماعية والتحديثية التي عصفت بالمجتمع الليبي في العقود الأخيرة .

كما أن المؤلف حاول من جانب آخر ، ربط حالة الثورة . أو الإنتفاض كما سماها في 2011م في ليبيا بعامل الشخصية القاعدية (وحده) (ص44) ، لتعكس تحليلاته هذه تبسيطاً وتسطيحاً لحالة الثورة كظاهرة معقدة تتداخل مجموعة من المتغيرات في أحداثها ، الأمر الذي لا يتيح إمكانية تفسير الثورة كظاهرة سياسية واجتماعية بالاستناد إلى عامل أو متغير واحد حتي . وربما يمكن القول ، استناداً لهذه التحليلات ، أن المؤلف بوعي أو بدونه يقصد بتحليلاته هذه عقلية وذهنية النظام السياسي السابق أكثر من أي شئ آخر ، وربما أيضاً يمكننا الإتفاق مع هذا الطرح إلى حد بعيد . لذلك ، فإن وسم الشخصية الليبية بطابع الإرتجال ، ونبذ الاستقرار ، وفي ضوء الذهنية البدوية وحدها ، يظل يشكل قصوراً في الفهم ، وابتعاداً عن الموضوعية العلمية تماماً . فضلاً عن أن وصف الشخصية القاعدية الليبية بأنها غير مبالاة للاستقرار (ص45) ، وفي ضوء التفكير البدوي وحده يظل كوصف بعيداً عن الواقع ، ويعبر من جانب آخر ، عن تعميمات قاصرة لا تتناسب مع منهجية توظيف أساليب التعميم في البحث العلمي . غير أن المؤلف لم يقف عند هذا الحد في التعميم بعد أن ذهب بعيداً في ذلك ، حينما أكد على أن " البداوة قد تحولت إلى أسلوب حياتي ، ونمط معيشي تم العمل على إعادة إنتاجها مجتمعياً اعتماداً على قوة السياسة " (ص46) .

وفي رأينا أن الأمر لا يعكس الحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمع الليبي كما ورد عن المؤلف ، بل أن المسألة ارتبطت - أساساً - بسلوكيات بعض الأفراد أو الجماعات التي تنتهي جذورها إلى قبائل بدوية ليبية في الواقع الحضري ، ناهيك عن تعمد النظام السياسي الظهور بمظهر البداوة في الكثير من المناسبات والمواقف كمظهر للأصالة والعراقة الزائفة . فضلاً عن أن النظام السياسي تعمد وبمنهج إلغاء كافة التعبيرات الثقافية غير البدوية متمثلة في : المسرح والسينما والرسم والنحت ، وإخضاعها للدلجة المفرطة (ص47) ، التي لا ينتظر منها ترسيخ قيم البداوة وذهنية البدو ، بل يسعى في ذلك لطمس كل آليات التعبير السياسي والثقافي والفني باعتبارها أدوات تغيير اجتماعي وسياسي رائدة ، وقادرة على قلب الأوضاع وتوعية المجتمع ، وكشف سفالة ونفاق ورياء النظام من جهة ، وكذب النظام على الشعب من جهة أخرى (التير ، 2014: 46-47) .

فضلاً عن أن البدونة المفروضة فرضاً أو قسراً من قبل النظام السياسي عكست دلالات ومعاني الارتجال والانفعالية والتقلب والانقلاب (ص 48) وهذه الأحوال التي تخلقت في ضوءها وبواسطتها محنة شعب محكوم بنظام استبدادي – أبوي ذكوري - تمتزج تماماً بمحنة وطن ممزق ومنقسم على ذاته بعد أن تجاوز وضعه كل معقول وممكن، والأحداث الأخيرة في ليبيا تعكس هذا الوضع تماماً.

لقد صارت البدونة المفروضة فرضاً في الواقع الليبي، وفي ظل عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والمؤسسي عامل تهريب مجتمعية، وفوضى غير مسبوقة، وضعف بنيوي وانكسار وهشاشة وتشردم أصاب المجتمع والمؤسسات على السواء، فضلاً عن التراكم الغريب للظلم والقهر والاستبعاد من جانب، والانتشار الواسع لهاجس الخوف والرعب المركب من السلطة والآخر ومن القريب والبعيد دون أن يغفل الأثر الكبير لما خلفه حكم القذافي من خراب وعنف في المؤسسات والنفوس " (مري، 2015: 16).

ومن بين ما وسم به المؤلف الشخصية الليبية (كشخصية بدوية) أنها تتسم بالواقعية والبراجماتية وإجادة استعمال الربح والخسارة وعدم الاستقرار (ص 50). وما يمكن قوله أن سمات وخصائص من هذا النوع هي هدف لكل فرد، وغاية كل شخصية، وأن حصلت اختلافات وتباينات في هذا الشأن فهي اختلافات في الدرجة فقط، وربما من المناسب القول أن الشخصية الحضرية هي أقرب إلى مثل هذه الخصائص النفعية والبراجماتية من غيرها من أنماط الشخصية الأخرى كالريفية والبدوية. مع الأخذ في الحسبان طبيعة المجتمع الحضري الذي يتأسس تماماً على العلاقات الرسمية والنفعية والمصلحية.

أما فيما يخص المنطق القبلي الذي ينحاز للغالب ولا يغامر بالانحياز للمغلوب، ولا يغامر لمناصريه (ص 50)، فإنه من الأجدر القول، أنه واقع لا يرتبط بالطموح القبلي وحده، بل أن الأمر ربما يطال كل فرد أو جماعة أو نظام أو كيان، طالما أن الأمر يُحسب في ضوء المصلحة والمنفعة كأهداف وغايات لكل سلوك أو فعل اجتماعي.

غير أن المؤلف ينتقل في موضع آخر من كتابه ليصف الشخصية الليبية ووفقاً للفهم البدوي بأنها تتسم بروح الغلبة والحرص على الهيمنة ، وهزيمة الآخر (ص53-54) وفي تقديري أن المؤلف لم يقدم جديداً ، فضلاً عن أن المسألة في الأساس هي تحصيلاً لحاصل ، وغاية كل قبيلة أو كيان أو نظام سياسي في الواقع العربي بشكل عام، والواقع الليبي بشكل خاص ، هذه المجتمعات التي لازالت تعكس حالة المجتمعات القبلية التي تشهد حضور القبيلة في ذهن كل فرد (التير ، 2014: 107) . علاوة على ووفقاً للباحث أباد الزعلان ، أن " معالم القبلية العربية حاضرة وبقوة في العقلية العربية منذ القدم وحتى العصر الحالي ، وإن تغيرت المسميات عبر الزمن (محمود، 2016: 51) . بيد أن المؤلف في موضع آخر وسم الشخصية الليبية بأنها شخصية " نهابة " تمارس الغزوات من أجل استمرار الغلبة ميدانياً وفعلياً ، وضمان الولاء والسلطة الذهنية والمعنوية على الآخرين (ص57). إن المؤلف بوصفه هذا يتحدث عن الشخصية الليبية اليوم في ضوء عقلية بدوية وذهنية بدوية عفي عليها الزمن ، الزمن الذي سادت فيه غزوات النهب كأسلوب للعيش والغلبة وهزيمة الآخر . لذلك فإن تعميم عقلية وذهنية وسلوكيات الشخصية البدوية على جميع الليبيين ، وفي كل وقت هو تعميم تعوزه الدقة ، ولا يعكس الواقع ، فضلاً عن أن الأسانيد النظرية التي استعان بها المؤلف لتدعيم تحليلاته قد استندت لتحليلات عالم الاجتماع العراقي على الوردي حول طبيعة المجتمع العراقي التي ترجع أساساً إلى حقبات زمنية بعيدة رغم أهميتها في تسليط الضوء حول بعض جوانب المجتمعات البدوية في المجتمع العربي علماً بأنه من المناسب القول أن الصراعات البدوية غالباً ما ارتبطت بالنزاعات حول الأرض والمرعى والماء والحرث ، والعرض أحياناً وداخل المحيط البدوي وحده .

ومن بين السمات والخصائص التي وسم بها المؤلف الشخصية الليبية ، خاصية الشمول متمثلة في السيطرة والاستفراد ورفض المناقشة وإزاحة المنافس وعدم قبول الاختلاف والمحاورة وحب التسلط والحرص على الغلبة (ص59-60) . وما ينبغي الإشارة إليه وتأكيد في هذا الصدد ، أن خاصية الشمول هذه لا تقتصر على الشخصية البدوية وحدها ، بل أن الأمر يطال الواقع العربي بشكل عام ، والثقافة العربية بشكل خاص ، هذه الثقافة

التي لا تتيح مجالاً للحوار والرأى المخالف والتعبير الحر، واستقلالية التفكير بالتوازي مع سيادة نوع من القيم الاجتماعية يعرف بالقيم العمودية " الهرمية " التي تنتظم العلاقات الإنسانية بمقتضاها على أساس التفاوت في السلطة والنفوذ والوجاهة والأسبقية والنوع والعمر (بركات، 1986: 355-356). ومن جانب آخر ، تظل الأنظمة السياسية العربية من خلال الأنظمة التعليمية والإعلامية والتربوية والثقافية تعمل على إعادة إنتاج التخلف ومصالح الطبقة المسيطرة ، وفلسفة النظام وايدولوجيته الواحدة الوحيدة ، مع ترويج خطاب فكري ذي الاتجاه الواحد واللون الواحد ، علاوة على صد الأبواب أمام التفكير الحر والناقد والرأى والرأى الآخر والحوار الديمقراطي وتبادل الأفكار والمعارف .

الشخصية اللببية وذهنية الغلبة :

انطلق المؤلف في هذا السياق من حاله ترادف بين البدونة المفروضة أو القسرية بفعل النظام السياسي في المعيش اليومي ، وبين سلوكيات الغلبة والسطوة ، وقد تحدث المؤلف حول هذه الحالة على مستوى الفرد والعائلة والقبيلة (ص61) ، وأستعرض المؤلف من جانب آخر تحليلاً واقعياً حينما حمل صفوة السلطة دون غيرها إعادة إنتاج أدوات وآليات الغلبة اعتماداً على ثلوث الربيع البترولي والخوف والزبونية (ص62) ، واستناداً على المفارقة بمرجعية هذه الصفوة متمثلة في قبيلة قوية ومؤثرة ومتنفذة . وهي في الحالتين – أي صفوة السلطة – تنشدد وتلتمس وبكل شغف ضمان الغلبة الريعانية والمالية والخدمات للقبيلة التي ينتمى إليها أكثر من الانتماء للوطن ولو على المستوى النفسي .

ومن ثم ، ظل هذا الطموح الهدف الأسى والغالي لرجال السلطة الذين تمكنوا من مفاصل السلطة لعقود ، أولئك الذين ساهموا بقوة في ترسيخ وتكريس أحوال الإنسداد والاستبعاد والتهميش والقهر والاستبعاد من جهة ، وإعادة إنتاج القبيلة والعصبية القبلية ، ومنع تدفق الثروة لصالح الشعب من جهة أخرى ، والحيلولة دون إستمتاع القطاعات المعارضة بهذا الربيع البترولي من جهة ثالثة، الأمر الذي ساهم في إقصاء السواد الأعظم من المدن والقرى

الليبية من الاستفادة من برامج التنمية والتحديث والخدمات لعقود طويلة ، وفي ظل سابقة إقصاء واستبعاد وتهميش لم يشهدها تاريخ ولا حضارة .

ومما زاد الأمر سوءاً ، أن رأس النظام السياسي قد تلاعب عنوة بأصحاب السلطة الذين ينتمون لقبائل قوية ومؤثرة بهدف تثبيت حكمه ، وترسيخ سلطته بعد أن لعب هذا النظام بورقة التناقضات الجهوية والقبلية (مصري ، 2015: 15-16) ، في مقابل أن يتمكن هؤلاء (أصحاب السلطة) من الاستئثار بالموارد المادية والرمزية باعتبارها تؤمن أحوال الغلبة والسطوة والسيطرة والوجاهة والمفاخرة على حساب شعب زج به عمداً وقسراً وقهراً في أحوال وظروف أقل ما يقال حولها أنها أحوال خارج العصر والتاريخ ومن بين الخصائص التي وسم بها المؤلف الشخصية القاعدية الليبية ، إنها عديمة الميل إلى الجهد وضعيفة الحماس للإنتاج والعمل (ص 67) . وقد ربط المؤلف المسألة بمسؤولية المجتمع الريعي الذي وصفه بالفج ، غير أن المؤلف في موضع ما في هذا السياق تحدث عن الشخصية البدوية ، وكأنه يخلط خلطاً غريباً بين الحديث عن شخصية قاعدية أو قومية ليبية ، وأخرى بدوية لا تميل بطبيعتها للجهد والعمل كنتيجة لحالة الترحل الدائم التي تعيشها في الزمان والمكان ، فضلاً عن احتقارها للمهن الحرفية والصناعية لصالح مهنتي الرعي والتجارة (ص 67) ، وقد نتفق مع المؤلف في تحميله المجتمع الريعي النفطي (كثيراً أو قليلاً) بعض المسؤولية في انتشار وسيادة نمط من الشخصية يدخل في قطيعة مع بذل الجهد واعتزال الإنتاج والعمل ، وهو ما يحصل فعلاً في الواقع الليبي ، ولعقود طويلة في ظل نظام سياسي أدار ظهره للتنمية والتحديث وتوطين الصناعة والاستثمار ، ناهيك عن عدم الاستثمار في الرأسمال البشري ، بيد أن ، تحميل المؤلف الشخصية الليبية مسؤولية ما يحصل من تخلف في العمل والإنتاج والخدمات وتفسير ذلك من منطلق بدوي خالص يشكل تماماً قصوراً وفشلاً في تحليل الواقع الاجتماعي الليبي بشكل عام ، والشخصية القاعدية بشكل خاص .

ومن بين ما ينبغي الوقوف عنده ، أن المؤلف استخلص تحليلاً استناداً إلى العقلية البدوية في فهم البنية الذهنية والثقافية والنفسية التي أنتجت فكرة إضعاف الدولة ،

والغاء المؤسسات ، ونبذ اشكال الوساطة السياسية (ص72) ، وبذلك صارت القبيلة الوسيط الاجتماعي والسياسي الفعلي والوحيد بين مركز الحكم والأفراد ، ومن ثم حلت محل النادي والمنبر والحزب وما ينبغي قوله في هذا الصدد ، أن إضعاف الدولة والغاء المؤسسات لم يكن وليداً لسطوة وقوة القبيلة كما ورد عن المؤلف ، بل أن كل المسؤولية تقع على النظام السياسي وحده كنظام استبدادي دكتاتوري راهن بهدف تثبيت حكمه ، واستمرار سطوته على التضامن القبلي والعادات القبلية في شكل استقطاب وتخويف وتوظيف لنخب القبيلة الليبية ومتعلميها ، بالتوازي مع آليات الإغراء بالمناصب ومراكز النفوذ ، وإغداق النعم في ظل انتشار غريب لثقافة النفاق والمنافقين الذين دخلوا في منافسة شرسة بهدف التقرب من السلطة (التير ، 2013: 272) ومن ثم يفسر الامر في ظل هذا التكتيك الميكافيلي الذي مارسه النظام السياسي فيما يخص استعمال القبيلة بين الحين والحين كجسر انطلقت منه فلسفة توهين وإضعاف الدولة بالمعنى المدني الحديث ، والغاء المؤسسات وتهميش السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وفتح الباب واسعاً أمام ظواهر فوضى وانفلات غير مسبوقة .

غير أن المؤلف في موضع آخر من كتابه كشف عن سمة أخرى للشخصية القاعدية الليبية كشخصية بدوية فكرياً وسلوكاً ، وتتجلى هذه السمة أو الخاصية في أنها شخصية غير مراكمة وغير حريصة على حسن توظيف التجارب ، وتثمين الخبرات ، وعدم تحمل إكراهات المجتمع ، وضغوط المدن والتزامات القوانين ، وضوابط الحياة العصرية (ص77) . ويضيف المؤلف ليؤكد على أن " بنية هذه الشخصية القاعدية من الناحية النفسية والذهنية تشجع القطيعة بين الأجيال ، وعدم تراكم الخبرات في صلب المجتمع (ص78) . وفي تقديري أن المؤلف وظف بوعي أو بدونه مقدمات نظرية أو مفهومية غير مناسبة وغير قادرة على تفسير قضايأ أو ظواهر في الواقع الراهن ، وربما تصلح هذه المقدمات النظرية و المفهومية في تسليط الضوء حول واقع آخر ، أو ثقافة أخرى ، على الرغم من أهمية هذه المقدمات في إلقاء الضوء حول بعض جوانب الواقع الاجتماعي والثقافي الليبي الأخرى . ومن ثم ، فإن توظيف مفهوم البداوة أو الذهنية البدوية في كشف حقيقة وطبيعة

الشخصية الليبية اليوم لا يستقيم مع الشروح والتفسيرات السوسيولوجية الموضوعية ، ومهما يكن من أمر ، فإن خصائص وسمات المراكمة والحرص على توظيف التجارب ، واستثمار الخبرات ، وتحمل ضغوط المدن والزامات القوانين تظل مسائل نسبية تختلف من مجتمع إلى آخر ، ومن ثقافة إلى أخرى ، وتفهم هذه المسألة في ضوء درجة تطور المجتمع المعين أو الثقافة المحددة . فضلاً عن أن الواقع الليبي كان ولا زال ضحية منظومة سياسية قررت أن تدخل في قطيعة لا رجعه فيها مع كل تغير أو تطور أو تحديث .

ومن جانب آخر ، تظل مسائل غياب المحاورة وتبادل الآراء والرأي المخالف والانتقال السلس للأفكار تعكس تحديات يعاني منها الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي العربي ، علاوة على أن المؤسسات الاجتماعية الرسمية والغير رسمية : المدرسة ، الأسرة ، الجامعة ، الإعلام ، المجتمع المدني لا زالت تعيد إنتاج الكثير من العوائق التي تقف أمام سيادة ، وانتشار قيم التفكير الحر والناقد ، والرأي المخالف والمحاورة والنقاش ، والتفكير المستقل والديمقراطي في ظل سلطنة دكتاتورية ألغت جميع أشكال التعبير الحر ، وحصر التعبير في خطاب اللون الواحد ، وهو خطاب السلطة الرسمية الذي يُوسم بأنه خطاب خشبي ممل وسمج خبره الليبيون خلال السنوات الأربعين الأخيرة (التير ، 2013: 272) .

ويؤكد المؤلف في موضع آخر ، على ربط الشخصية القاعدية الليبية بظاهرة إدارية خطيرة وغريبة تعصف بالواقع الرسمي الليبي ، وهي ظاهرة امتدت أربعة عقود دون تراكم وثائقي ، ودون أرشيفات منظمة ... بل أن جزءاً مهماً من الأرشيفات التاريخية تعرض للتلغ ، فضلاً عن إحراق السجل العقاري في ثمانينيات القرن العشرين (ص 79-81) . ومن جانب آخر ، وسم المؤلف الشخصية الليبية ومن منظور بدوي خالص بتفضيلها للرواية الشفوية وكراهية التوثيق المكتوب ، وما يمكن قوله في هذا الصدد ، أن المؤلف حاد تماماً عن حقيقة الأشياء والوقائع ، وغابت عن تفسيراته الموضوعية والمصادقية والدقة ، ناهيك عن أن تعميماته كباحث تفتقر للموضوعية - غير أنه من المناسب القول ، أن تهديم المؤسسات وطمس الوثائق ، وتدمير الذاكرة المكتوبة والتاريخية ، وإحراق السجلات العقارية هي

سلوكيات تعتمد النظام السياسي القيام بها بتخطيط ومنهج ، وعن سبق إصرار ، انطلاقاً من مبدأ – ميكافيلي- يؤكد على أن حكم البشر سياسياً قد يمر من بوابة – نشر الفوضى وحدها – خلال عقود من الزمن . مجمل القول ، أن النظام السياسي وحده ، وبسببه ، ومن خلاله ، وبواسطة مايسي بالثورة الثقافية في 1973م هو من صاغ معالم هذه الفوضى الإدارية والثقافية الغير مسبقة .

القبيلة والتحديث في ليبيا :

استعرض المؤلف العلاقة بين القبيلة والتحديث في ليبيا في إطار الحديث عن الشخصية القاعدية الليبية ، وقد أنطلق من فرضية ترجح أن التحديث المادي مهما بلغت قوته ، وأهمية تمويله لا يفضي إلى تفكيك المجتمع القبلي ، وإلى إندثار أواصر البداوة ، وتلاشي ثقافة العصبية (ص84-85) . لقد أصاب المؤلف إلى حد بعيد في ذلك ، وهو أمراء متوقعاً في الواقع العربي في مجمله الذي شهد حركة تحديث مادي افتقدت للتبدلات والتحولات المهمة على مستوى الفكر والسلوك ، فضلاً عن الفشل في تدوين وتراجع الذهنية والبدوية ، والواقع القبلي بصورة خاصة، وهذا الوضع تؤكده العديد من الدراسات المحلية والعربية (التير ، 1992؛ زايد ، 2005؛ الترهوني 1999؛ النقيب ، 1987) .

ومما لاشك فيه ، أن القبيلة الليبية والعربية تتعايش إلى حد بعيد مع التحديث المادي والسريع بهدف الحصول على منافع ووجاهة ، وتأثير سياسي وفقاً لمبدأ الولاء مقابل الهبة مع استعداد القبيلة – دائماً- لتقديم تنازلات لصالح النظام السياسي في ظل عمليات إستقطاب بائسة ومؤبوة يمارسها النظام نفسه . وفي ظل هذه العلاقة المشوهة بين التحديث والقبيلة في الواقع الليبي كما هو الحال في الواقع العربي غابت عن المشهد التبدلات والتحولات العميقة التي تصنع التحديث على المستوى الاجتماعي والثقافي والقيمي .

ومهما يكن الأمر ، فإن حالة التحديث الليبي تكمن أساساً في صورة التحديث المضطرب والهجين والمشوه والمختلط بفعل سيادة ممارسات وسلوكيات تجمع بين هذا وذاك ، وبين القديم الجديد ، والتراث والمعاصرة ، والماضي والحاضر ، ويشكل كل هذا في المجمل تحديثاً لا ينتهي للقديم بصلة ، ولا للحدث بعلاقة ، بالتوازي مع تشوه النسخة الأصلية للتحديث من جانب ، ونسخة التقاليد والتراث من جانب آخر. وفي الحالتين من التشويه نُبذ العقل التي تشكلت في ضوءه الحداثة والتراث (زايد ، 2005: 113) .

ومن المناسب القول ، أن استمرار الصراع بين الحداثة والتراث ، ناهيك عن غياب لحظة حسم هذا الصراع في الواقع العربي قد سد الأفق تماماً أمام الحداثة بالمعنى الثقافي ، أو الكونية التي انتشرت وسادت - عالمياً - على حساب الثقافات الأخرى من بينها العربية التي صارت ضحية التهميش الحضاري الذي لا يرحم ، بعد أن صارت الثقافة العربية بعيدة عن المبادرة والفعالية والتأثير .

مجمل القول، وخلاصة الأمر، أن تعثر تجربة التحديث الليبي رغم توفر كل الظروف والإمكانات المادية ، تفسر أساساً في ضوء - تعمد - النظام السياسي متمثلاً في نظام القذافي في التنصل من مسؤولية تحديث المجتمع الليبي اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، بما في ذلك تأجيل حالة الإندراج في الحداثة ، وعدم الإنقطاع عن العصر. وعوضاً عن ذلك ، فإن النظام السياسي السابق ، قد وقّر مظلة مناسبة للمحافظة على التفكير البدوي والذهنية البدوية ، بدلا من العمل على تغيير الخصائص السلوكية لشعب تشكّل غالبيته نسبة 95% من سكان الحضر . فضلاً عن أن هذه الغالبية من السكان تقطن الساحل الليبي الذي يمتد طوله ألف وتسعمائة كيلو متر تقريباً (العربي ، 2015: 7) .

يختتم المؤلف كتابه حول الشخصية الليبية بالحديث عن قدرة الشخصية الليبية إذا ازدهرت الأوضاع الاقتصادية على فرز - عقلية التاجر - الذي لا يجيد المحاور

السياسية ، وإنما يجيد المقايضة وفن التفاوض من أجل الكسب والفوز بالصفقة (ص97) . وما يمكن قوله في هذا الصدد ، أن الأمر ليس بهذا التبسيط والتسطيح لحالة الشخصية القاعدية الليبية . فالتاجر وهو يمارس فن الكسب ، واصطياد الصفقة ، والبحث عن الربح ، يعكس في الأساس مهارة سياسية ، ويكشف عن عبقرية تفاوضية توظف فن إدارة الممكن ، وتحقيق المصلحة . ومن جانب آخر ، فإن إختزال الشخصية الليبية في شخصية تاجر ناجح فقط ربما يمثل - قصوراً - في فهم الشخصية الليبية والواقع الليبي ، فضلاً عن ، أن الحديث عن الشخصية في ضوء مهارات التاجر والتجارة يظل يشكّل وجهاً واحداً من الحقيقة أو الواقع ، علاوة على ، أن الواقع الاجتماعي يتسم بداهة بالتعقيد والتغير ، وتداخل وتشارك الكثير من المتغيرات في إحداثه ، وهو ما ينطبق على الحديث حول الشخصية القاعدية أينما كانت وحيثما وجدت . ناهيك عن استحالة تفسير الواقع الاجتماعي بشكل عام ، والشخصية القاعدية بشكل خاص من خلال متغير واحد حتي .

الخاتمة

استهدفت هذه الورقة البحثية القراءة والمراجعة النقدية على المستويين النظري والمنهجي للعمل البحثي الموسوم : الشخصية الليبية : ثلوث القبيلة والغنيمة والغلبة للباحث التونسي المنصف وناس . ويتشكل مضمون هذه الورقة أساساً من حوار ونقاش سوسيولوجي يدور حول العوامل أو المتغيرات التي أثرت ، وساهمت في هندسة ونحت الشخصية القاعدية الليبية تلك العوامل والمتغيرات التي أستند إليها عمل الشخصية الليبية للمنصف وناس والمشار إليه أعلاه .

وقد صيغت تلك المتغيرات وما ارتبط بها من تفسيرات وأحكام وتصورات في ضوء تبني الباحث وناس لمنظورات تاريخية اجتماعية تدور حول استيطان روماني ووندالي وبيزنطي وأسباني وتركّي ... للأرض الليبية خلال قرون عديدة من الزمن ، وعلى حساب أهمية العوامل الثقافية التي تحمل الأدوار الأكثر تأثيراً في نحت وهندسة معالم الشخصية

القاعدية في المجتمعات البشرية ، فضلاً عن ، أن الشخصية القاعدية الليبية تعتبر منصهرة تماماً في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية ديناً ولغة وثقافة وتاريخاً .

ومما يثير الإنتباه ، فضلاً عن الشك في الكثير من نتائج وأحكام كتاب الشخصية الليبية موضوع هذه الورقة أن هذا العمل إنطلق من منطلقات نظرية ومنهجية خاطئة في الأساس تمثلت في : تحديدات وصياغات غير دقيقة وغير واضحة لمفهومه الرئيسي متمثلاً في الشخصية القاعدية ، فضلاً ، عن منطلقات غريبة ارتبطت باستخدام وتوظيف إجراءات منهجية قاصرة ومشوهة . ومن بين ما ينبغي قوله في هذا الصدد ، أن عمل الشخصية الليبية هذا قد أنطلق من إشكاليات خطيرة على المستوى النظري تمثلت أساساً في غياب الأدبيات المناسبة والمتماسكة القادرة على توجيه مادة الكتاب ، فضلاً عن تحديد المفاهيم الرئيسية في ضوءها وبواسطتها ، علاوة على أن هذا العمل إنحاز نظرياً لكتابات غربية أنجزت حول الشخصية العربية التي تنفرد بخصوصية وطبيعة مغايرة ومختلفة وتتميز بخصوصية حضارية وثقافية مميزة تشكلت في ظل روافد عديدة عربياً وإسلامياً وأفريقياً .

وبين هذا وذاك ، جاء عمل الشخصية الليبية ليقدم لنا جرداً لصفات وخصائص الشخصية القاعدية الليبية التي تمارس أحوال النهب والغلبة والبداءة والقبيلة والغنيمة والثأر ونبد التغيير والحضارة والتحديث إلخ .

ومهما يكن من أمر ، فإن جرداً لخصائص الشخصية القاعدية الليبية بهذا الشكل ، وبهذا التجنى لا يمكن أن يعكس أو يعبر عن صفات ترقى إلى حالة المفاهيم التي يتوصل إليها أهل البحث العلمي تلك المفاهيم التي تُعرف على أنها أقوال لا توصف لا بالصدق ولا بالبطلان . ومن ثم ، فإن صفات وخصائص الباحث وناس التي أطلقها على أنها خصائص حقيقية للشخصية القاعدية الليبية لا يمكن اعتبارها كذلك ومن ثم ، لا يمكن بأي شكل وتحت أي ظرف استنباط تصور نظري ذو مصداقية يدور حول الشخصية الليبية من خلال استعراض جرداً ، أو قائمة بصفات أو خصائص يسم بها كتاب وناس الشخصية القاعدية الليبية . وربما كان من الممكن على الباحث وغيره من الباحثين في المجتمع العربي

تحقيق هذه الغاية بصياغة مفاهيم جديدة تنتمي – جملة وتفصيلاً – لواقع الشخصية الليبية والمجتمع الليبي بشكل خاص ، وواقع الشخصية في المجتمع العربي بشكل عام بالتوازي مع ضرورة إعلان الباحثين العرب لقطيعة لا رجعة فيها مع التبعية الفكرية والأكاديمية للعلوم الاجتماعية الغربية . وفي ضوء هذا الإخفاق العربي في الوصول إلى نحت نظرية عربية حول خصائص وسمات الشخصية العربية ، فإنه من المهم دعوة الباحثين كلا من ميدانه وتخصصه البحثي إلى إجراء بحوث ودراسات رائدة تنطلق من خصوصية وطبيعة الشخصية العربية والواقع العربي وحده .

الهوامش والمراجع

- محمد الجوهرى ، عبدالله الخريجي ، مناهج البحث العلمي : الجزء الثاني : طرق البحث الاجتماعي ، جدة : دار الشروق ، 1980م .
- أحمد زايد ، تصميم البحث الاجتماعي : أسس منهجية وتطبيقات عملية ، القاهرة : الانجلو المصرية ، 2002م .
- على حسين الوردي ، شخصية الفرد العراقي : بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث ، لندن : منشورات دار ليلي ، 2001م .
- عبدالرحيم محمد عبدالرحيم ، الشخصية المصرية في أدب يوسف أدريس ، القاهرة : مطبعة الأمانة ، 1990م .
- إبراهيم الحيدري ، الشخصية العراقية (1) البحث عن الهوية ، بيروت ، القاهرة ، تونس : التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، 2013م .
- مديحة فخري محمود ، العقلية العربية في زمن العولمة : مشكلات وقضايا ، عمان : دار دجلة 2016م .
- حامد عمار ، "حوار منهجي حول التنمية الاجتماعية ومقدمات الشخصية العربية" ، المستقبل العربي ، العدد 23، كانون الثاني / يناير ، 1981م ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ص 93 – 106 .
- مصطفى عمر التير ، أسئلة الحداثة والانتقال الديمقراطي في ليبيا : المهمة العصرية ، بيروت : منتدى المعارف ، 2013م .
- مصطفى عمر التير ، مسيرة تحديث المجتمع الليبي : مواءمة بين القديم والجديد ، بيروت : معهد الإنماء العربي ، 1992م .
- حليم بركات : المجتمع العربي المعاصر : بحث استطلاعي اجتماعي ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1986م .

- السيد ياسين ، الشخصية العربية : بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، 1993 م .
- مصطفى عمر التير ، صراع الخيمة والقصر : رؤية نقدية للمشروع الحدائي الليبي ، بيروت : منتدى المعارف ، 2014 م .
- أحمد بعلبكي ، قراءة ومراجعة لكتاب مصطفى عمر التير ، صراع الخيمة والقصر : رؤية نقدية للمشروع الحدائي الليبي ، المستقبل العربي ، العدد : 426 ، آب / أغسطس ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 2014 م ، ص 143-147 .
- محمد أحمد بيومي وآخرون ، تصميم البحث الاجتماعي : الأسس والاستراتيجيات ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1992 م .
- محمد على محمد ، مقدمة في البحث الاجتماعي ، بيروت : دار النهضة العربية ، 1983 م .
- محمود الذواوي ، الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث ، تونس : تير الزمان ، 2006 م .
- محمود الذواوي ، قراءة ومراجعة كتاب المنصف وناس : الشخصية التونسية : محاولة في فهم الشخصية العربية ، المستقبل العربي ، العدد : 396 ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 2012 م ، ص 159-163 .
- مصطفى عمر التير ، مقدمة في مبادئ وأسس البحث الاجتماعي ، طرابلس : مركز الدراسات الاجتماعية ، 2015 م .
- ضوء خليفة الترهوني ، " دور النظرية في تحديد وصياغة المشكلة البحثية : التساؤلات والفروض والمفاهيم الرئيسية " مجلة كلية الآداب ، العدد : 28 ، طرابلس : كلية الآداب ، جامعة طرابلس ، 2016 م ، ص 183-202 .
- ضوء خليفة الترهوني ، " دور الدراسات السابقة في تحديد المكونات الرئيسية للمشكلة البحثية : التساؤلات والفروض والمفاهيم الرئيسية " ، مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد : 11 ، طرابلس ، كلية الآداب ، جامعة طرابلس يونيو 2017 م ، ص 123-150 .
- أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، الكويت : وكالة المطبوعات ، 1986 م .
- طارق متري ، مسالك وعرة : سنتان في ليبيا ومن أجلها ، بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ، 2015 م .
- ماجدة العربي ، الآثار الاجتماعية للانقسام السياسي في ليبيا ، طرابلس : المنظمة الليبية للسياسات والاستراتيجيات ، 2015 م .
- خلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية : من منظور مختلف ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1989 م .